المقتطف

الجزء العاشر من السنة الخامسة عشرة

١ تموز (يوليو) سنة ١٨٩١ الموافق ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٠٨

اصل الانسان

البحث في اصل الانسان من اطلى المباحث واهمها وله المنزلة الاولى عند علماء اوربا واميركا وقد اشتغل البعض به عندنا ولكنهم نقلوا ما كتبوهُ عن تشارلس هوج الاميركي او غيرهِ من الكتّاب المتطفلين على ما ليس من مباحثهم ثم نَقَل بعضهم عن بعض فتبرّوا الحقائق وخلطوا الغث بالسمين . ولما كان لكل علم جهابذة يُعتمد عليهم ويُرجَع اليهم لم نرَ خيرًا من تلخيص ما يقولهُ هؤلاء الجهابذة فلخّصنا اقوال دارون ووليس وميفارت من كتبهم نفسها لا مما كتبهُ غيرهم عنهم . وقد وقفنا الآن على خطبة للاستاذ ورخوف اشهر علماء الجرمان ألقتها جمعيّة فكتوريا الفلسفيّة في اعمالها . وما يُعهَد من مقام ورخوف بين رجال العلم ومقام هذه الجمعيّة بين الجمعيّات العلمية الدينيّة اقوى ثبت على ان ما سنذكرهُ صادر من اسمى المراكز العلميّة واحراها بالثقة والتصديق

قال الشهير ورخوف بعد كلام طويل لا محل لهُ هنا ما خلاصتهُ "اننا لما اجتمعنا في انسبرك[1] منذ عشرين سنة حينما نُشرَت اعلام النصر لمذهب دارون اول مرّة انضمّ صديقي كارل فوغت[2] الى انصار دارون فقوي بهِ امرهم وظن البعض ان مذهب دارون سيفوز فوزًا مبينًا وانهُ سيثبت ارتقاء الانسان من القرود او نحوها من الحيوانات بالدليل القاطع . وتحدّث الناس بهذا الموضوع بين مثبتٍ ونافٍ ومصدّقٍ ومكذّبٍ حتى صار شغلاً شاغلاً للجميع وحسبوهُ الغرض الاعظم من علم الانثربولوجيا . الاّ ان العلم الطبيعي لا يقرّ على امرٍ ما لم يثبت بالدليل . وهو ينظر في الاراء والفروض ويبحث ولكنهُ لا يحسب لها اهميّة ما لم

(١) مدينة في بلاد النمسا (٢) استاذ الجيولوجيا في مدرسة برن الجامعة بسويسرا

تم الادلّة على صحتها اما بالامتحان او بالمشاهدة . اما مذهب دارون فلم يثبت حتّى الآن بالامتحان ولا بالمشاهدة اذا نظرنا اليهِ من وجهة الانثربولوجيين . وقد فتّش انصارهُ عن الحلقات التي تربط الانسان بالحيوانات فلم يجدوا واحدةً منها ولا وجدوا الحيوان المتوسط بين الانسان وبينها ولذلك فهذا الحيوان المتوسّط شيءٌ وهمي عند علماء الانثربولوجيا لا يبنى عليهِ حكم من احكامهم لانهُ ليس موجودًا . وقد براهُ الانسان في الوهم او في الحلم ثم يقف فلا يرى شيئًا لاننا عائشون الآن في عالمَ الحقيقة لا في عالمَ الخيال . ولما اجتمعنا في انسبرك منذ عشرين سنة حسبنا انهُ يسهُل علينا الاستدلال على اشتقاق الانسان من الحيوان اما الآن فيتعذّر علينا ذلك ويتعذّر علينا ايضًا الاستدلال على اشتقاق شعوب الناس بعضها من بعض . اي ان علماء الانثربولوجيا لا يمكنهم الحكم بأن الناس كلهم مولودون اصلاً من اب واحد وامّ واحدة

وكان المظنون حينئذٍ ان وحدة نوع الانسان ممّا يمكن اثباتهُ بسهولة ثم لما حاولوا اثبات هذه الوحدة رأوا من المصاعب ما لم يقووا على ازالتهِ . وقد حاول البعض ان يعرفوا الشعب الاول الذي اشتقّت منهُ بقيّة الشعوب مستدلين على ذلك بالجماجم القديمة فذهب بعضهم الى ان الشعب الاول هو المغول وبقيّة الشعوب مشتقة منهم وقال غيرهم انهُ الاستراليون وبقيّة الشعوب مشتقّة منهم ثم اخذوا يبحثون عن اصل الاوربيين بموجب ذلك فلم يجدوهُ . وحتّى الآن لم يقم دليل على ان الانسان كان في عصر من العصور احط من كل انسان موجود الآن . والحقيقة ان اجسام اقدم الناس كانت كاجسام اهل هذا العصر ولم يكن فيها شيءٌ ليس في اجسام اهل هذا العصر

وكانت معرفتنا بجماجم المتوحشين منذ عشرين سنة قاصرةً جدًّا ومزاعمنا كبيرة اما الآن فلم يبقَ شعب من شعوب الارض الاَّ وعُلمت احوالهُ الطبيعيّة والاجتماعيّة ما عدا شبه جزيرة ملقّافان احوال شعوبها لم تُعرَف تمامًا حتّى الآن والمظنون انهم اوطأ شعوب الارض واما غيرهم من الشعوب كالبتاغونيين والاسكويمو والبشمن والقدا واهالي لبلندا واستراليا وبولونيزيا وملانازيا فقد عُرفوا وبعضهم عُرف اكثر من بعض الاوربيين فاننا نعرف من امور اهالي بولونيزيا مثلاً اكثر ممّا نعرف من امور بعض قبائل الارناؤوط . وقد بحثنا البحث المدقق في بنية هؤلاء الشعوب وقسنا كل عَظم من عظام اجسامهم فلم نرَ بينهم شخصًا واحدًا يمكننا الحكم بانهُ اقرب الى القرد منهُ الى اهالي اوربا او بانهُ ليس من نوع الانسان

ولا ينكر ان في بعض طوائف الناس صفات يشاركهم القرد فيها كما في بروز

الملك وفطس الانف مما يجعل العلاقة قريبة بين تلك الطوائف والقرود حتى يحتمل ارتقاؤها من القرود ولكن بين الاحتمال والقطع بونًا شاسعًا لان الصفات المشار اليها لا تقوّم نوع القرد بل المقوّم له خواص أخرى . وكلُّ قدّة من جلدهِ كافية لتمييز نوعهِ عن غيرهِ من الانواع . ولا اظنُّ ان واحدًا من المشرّحين المشهورين يرتاب في ذلك . والفرق بين الانسان والقرد واضح جدًا حتى ان كل قطعة من الواحد كافية ليستدل منها على النوع المقطوعة منهُ ولذلك فالادلة على النشوء الفعلي قاصرة جدًا لا يبنى عليها حكم . ولا بدّ من ان يزيد البحث والتنقيب للوقوف على ادلة أخرى قويّة

ولا اخفي عليكم ان كل آثار الناس التي وجدناها في الكهوف والقبور القديمة تدلُّ على ان اصحابها كانوا اخوة لنا لا يستحى بهم . وقد تفحصت كل الجماجم التي وُجدت في مجبرات سويسرا فوجدت انها من قبائل مختلفة تلا بعضها بعضًا على ما اظن ولكن ما منهم من يمكن فصلهُ عن ابناء هذا الزمان

ولا نستطيع الآن ان نحكم بحسب المعارف الطبيعيّة ما اذا كانت شعوب الناس وجدت كلها من اب واحد أو من آباء كثيرين . فعلى كل انسان ان يحكم لنفسهِ بما يشاء . فاذا نظر واحد الى هذه المسئلة من وجهٍ ديني وقال ان الناس كلهم من اب واحد وامٍّ واحدة بناء على ما تعلّمهُ اياهُ الكتب الدينية فليس لنا ما نعترض بهِ عليهِ لانهُ من الممكن ان يكون الناس قد تناسلوا من اب واحد وام واحدة ثم تغيّرت عليهم الاحوال فحدث ما نراهُ الآن فيهم من الاختلاف ولكنهُ لم يثبت عند العلماء حتى الآن ان الزنوج متناسلون من البيض ولا ان البيض متناسلون من الزنوج لان ذلك لم يقع تحت المشاهدة حتى الآن ولا شوهد حدوث شيء يجعلهُ محتملاً والذي نعلمهُ يقينًا ان الزنوج متناسلون من الزنوج والبيض من البيض

وقد التفتُّ الى بلاد مصر راجيًا ان ارى فيها دليلاً على تغيير بنية الانسان واشتقاق بعض قبائلهِ من بعض فرجعتُ بخفّي حنين لان الرسوم المصريّة القديمة التي مرّ عليها خمسة آلاف سنة فاكثر تصوّر المصري والزنجي كما نراهما الآن . وكل ما حدث في شعب مصر من التغيُّر انما هو ان اهالي المملكة القديمة كانوا منرطحي الرؤوس واهالي المملكة الحديثة كانوا مصفحي الرؤوس ومن ايام المملكة الحديثة سنة ١٧٠٠ قبل المسيح الى الآن اي مدة ٣٥ قرنًا لم يحدث في هيئة المصريين تغيُّر يستحق الذكر

ومن المحتمل ان تغيُّر الاقليم والعمل يحدث كل ما نراهُ من الفروق بين شعوب الناس وهنا يتفق اصحاب المذاهب العلميّة والدينيّة فاهل المذاهب الدينيّة يصلون الى الانسان

الاول ويقفون عندهُ واهل المذاهب العلميَّة يتدون وراء الانسان الاول الى الحيوانات القريبة منهُ وهذا هو الفرق بين الطائفتين . وكل طائفة منهما تسلِّم بان نسل الانسان الاول تغير فتولدت منهُ كل الشعوب ولكنهُ يتعذَّر على الطائفة الواحدة ان تبرهن ان شعوب الناس مشتقة كلها من اصل واحد كما يتعذَّر على الطائفة الاخرى ان تبرهن ان نوع الانسان مشتق من الحيوان . واذا سألتموني هل كان الانسان الاول ابيض او اسود وجب عليَّ ان اقول انني لا اعلم . لانهُ لا يوجد دليل على ان الانسان الاوَّل كان ابيض ولا على انهُ كان اسود ولا على ان الواحد مشتق من الآخر ولا ابن حدث ذلك . وقد قيل ان سكن البلدان الشمالية يجعل الناس بيض الاجسام شقر الشعور وظاهر الامر ان هذا القول مقبول ولكنَّ البلاد الشماليَّة في اميركا لم تجعل الاميركيين بيض الاجسام ولا شقر الشعور . وقد كان الجرمانيون والفنيون شقرًا من قديم الزمان والفنيون من المغول فكيف صاروا شقرًا وبقيَّة المغول لم يزالوا سمرًا او سودًا الى يومنا هذا ذلك ممَّا لا نعلمهُ

ومنذ ما ظهر مذهب داروين الى الآن وانا احاول ايقاف الوراثة عند حدها الواجب فانني اسلِّم بصحتها ولكنني اقول انها في الانسان ناقصة غير عامة لان الوراثة العامة في المعنى الزولوجي تستدعي انتقال كل الخواص من الفرد الى ولدهِ وهذا غير موجود في الانسان ولا نعلم يقينًا الى اي حدٍّ يصل فعل الوراثة ولذلك يتعذَّر علينا ان نعرف تأثيرها في الانسان . ومن المحتمل ان الاقليم يغير فيهِ وينتقل التغيُّر الى اعقابهِ بالوراثة ولكن ليس لدينا دليل على ان الدخيل في بلاد تصير اعقابهُ مثل اهلها الاصليين تمامًا

وترون ممَّا تقدَّم اننا قد تقهقرنا في معارفنا وان الناس منذ عشرين سنة كانوا يعرفون اكثر ممَّا نعرف نحن الآن . وسبب ذلك اننا قد محَّصنا معارفنا وصرنا نعرف الذي نعرفهُ . والحقيقة ان الناس لم يكونوا يعرفون منذ عشرين سنة قدر ما نعرف الآن ولكنهم كانوا يعتقدون انهم يعرفون . اما نحن فعرضنا معارفهم على نار التمحيص واقمنا العلم الطبيعي في مقامهِ الواجب لهُ فوجدنا ان اكثر ما كان يُحسَب علمًا ليس من العلم في شيء فوضعناهُ في دائرة الايمان

هذه خلاصة ما قالهُ الشهير ورخوف وهو من اكبر علماء العصر ومن اعظم المناوئين لمذهب داروين وانصارهِ وقد قام لهم بالمرصاد منذ سنين كثيرة يعارضهم ويخطئهم لا بالكلام الفارغ والسفسطات بل بالبحث والتنقيب في الامور التي يبحثون فيها فاذا قاس انصار داروين خمسين جمجمة واستدلوا بقياسها على امر من الامور قاس هو مئة

جمجمة ليرى ما اذا كانوا مصيبين او مخطئين . واذا استدلوا على امر من الامور بتشريح المقابلة او بمباحث علم الفسيولوجيا او البيولوجيا او الانثروبولوجيا او الاركيولوجيا نظر في استدلالهم بعين الناقد البصير لانهُ من اكبر الثقات في هذه العلوم وامثالها . وليضفْ ما اثبتناهُ في هذه المقالة الى ما اثبتناهُ قبلاً من اقوال زعماء المذاهب العلميَّة الذين لم وحدهم القول الفصل في هذه المباحث . وسنوافي القراء الكرام دائمًا بما نعثر عليهِ من الاقوال الحديثة والمختبرات الجديدة

العلم والخلود

مَالكَ زيد بحق الارث ملكًا وسيعًا فيهِ سهول فيحاء واشجار غياء ومياه غير وخيرٌ كثير وفيما كان يتمتع بهِ هو وابوهُ قيل لهم ان المُلْك ليس لكم والارث مطعون فيهِ فرايهم الامر وخافوا العاقبة واخذوا يضربون اخماسًا لاسداس ويعدّ اللتيَّا والتي قال بعضهم ان المُلْك لنا بحق شرعي وقد تمتَّع بهِ آباؤنا واجدادنا من قبلنا فلا عبرة بما يتقوَّلهُ الناس ولا بما يطعنون بهِ على حقنا . وقال البعض الآخر ان الايَّام يلدنَ العبَر ومامن صناء لم يشبهُ كدَر . فقد تقوى حجة الخصوم فينتزعون منا ملك آبائنا واجدادنا ويجعلون يفتشون عن الادلَّة والاسانيد التي تثبت حقهم وتنفي دعاوى غيرهم حتَّى اذا عثروا بدليل على منها استوفوهُ واستجلوهُ وعلقوا بهِ عُرَى الآمال

وهذا شأن كثيرين في امر الخلود والمعاد فان اكثر ابناء هذا الجيل يشاركون على ان الخلود امرٌ محتوم وان النفس تفارق الجسد وتغادر هذه الدار الفانية لتتمتع بنعيم الدار الباقية . والحياة الدنيا من المهد الى اللحد استعداد للحياة الاخرى . وهذا الاعتقاد اعزُّ ما تملكهُ وهو المعزِّي لنا عن تحمُّل اسواء الحياة وفراق الاحباء والولاءُ لكانت الحياة الدنيا لغوًا لا معنى لهُ ومشقَّة على غير جدوى . وفيما النفوس مطمئنة بهذه الآمال واعية على هذا الرجاء قام الفيلسوف جون ستيوارت مل وغيرهُ من كبار العلماء وبيَّنوا بادلَّة كثيرة ان قوانا العقليَّة ناتجة من حركة دقائق ادمغتنا كما ان الحرارة تحدث من حركة دقائق المادَّة وان النفس التي نحسبها خالدةً بعد فناء هذه الاجساد قد لا تكون الاَّ حركة في دقائق الدماغ . فالمسألة ليس من اساس علمي لما نعتقدهُ من امر الخلود والمعاد . وذاعت هذه الاقوال في اوربا واميركا وصدَّق لها كثيرون وبلغت بلاد المشرق وشاعت فيهِ وكدَّرت صناء البعض من اهليهِ